مكانة التاريخ في تصنيف العلوم عند ابن حزم الظاهري

بقلم د. عبد السلام سعد
أستاذ محاضر بجامعة الجلفة

ملخص المقال:

ازدهر الفكر التاريخي في الأندلس موضوعا ومنهجا، تحقيقا وتفسيرا؛ وأسهم كبار مؤرخيه في ترسيخ هذا العلم، ليحتل مكانة مرموقة بين العلوم الأخرى؛ وبفضل ابن حزم ومدرسته، تطورت موضوعات علم التاريخ التقليدية، واستحدثت موضوعات جديدة، كما اعتمدت الدراية إلى جانب الرواية. ووسط هذا الخضم برز علي بن أحمد بن حزم (384هـ-456هـ/994م-1064م) ليؤدي دورا محوريا في تطوير الفكر التاريخي الأندلسي. وقد ذاعت شهرته كفقيه وأصولي ظاهري، ومحدث وأديب، فغطى ذلك على شهرته كمؤرخ مرموق، وموثق للحوادث التي وقعت بالأندلس في عصره، فلقد كان « أَفْحَلَ ذهنٍ إنبثقت عنه الأندلس في جميع عصورها, فهو الذهنية الفريدة التي تُمثّل الثقافة الأندلسية أصدق تمثيل, ولستُ أرى هذه الميزة لآخر سواه...»[1]

وما يعنينا في هذه الدراسة، هو عمله المنهجي في تصنيف العلوم، وترتيبها وفق رؤية فكرية وثقافة محددة، والإشكال المطروح: ما مكانة علم التاريخ في تصنيف العلوم عند ابن حزم الظاهري الأندلسي؟..

تقديم:

إن تصنيف العلوم عمل علمي منهجي، ومن يستقرئ تاريخ العلوم يجد محاولات كثيرة قديما وحديثا لهذا العمل الذي كان يقوم به المؤرخون والفلاسفة غالبا، ولذا نجد تصنيفا للعلوم في الفكر العربي الإسلامي عند أبي حيان والكندي والفارابي وابن سينا وابن خلدون وغيرهم.[2] وأما التصانيف غير الإسلامية، فنجدها مثلا عند أفلاطون وأرسطو وفرنسيس بيكون وغيرهم.[3]

---

1)- سعيد الأفغاني:"ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة" المطبعة الهاشمية, دمشق, ط.1940م, (ص.150).

2)- أحمد فؤاد باشا: "ابستمولوجيا العلم ومنهجيته في التراث الإسلامي" "بحث مقدم إلى ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي" جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، بتاريخ (9-12) سبتمبر.1989م (ص.16)

3)-عبد المجيد النجار: "مباحث في منهجية الفكر الإسلامي" (ص 35-38) ومحمد علي أبوريان: "الفلسفة ومباحثها" (ص89-92).

ولقد اهتم ابن حزم بالعلوم وبيان مراتبها وتصنيفها، كما أشار إلى أنواع العلوم وما هو محمود منها وما هو مذموم, كما تحدث عن البرنامج التعليمي وطرق التعليم التربوية، وعن مناهج التأليف, والغاية من الحصول على العلوم والمعارف [1] وكل ذلك يندرج ضمن فلسفة العلوم لا إحصائه لها فحسب، ولذا يمكن اعتبار تصنيفه هذا عملا منهجيا وإبستمولوجيا.

ومع أنّ ابن حزم قد سُبق بتصنيفات كثيرة للعلوم, إلا أن تصنيفه كان رائدا ومتميزا، فاق به المصنفين في الرؤية والتنظير؛ ونحن نرى في تصوره رسوخا ووضوحا, وجرأة فاق بها عصره وبلده، تظهر في إيجاده مكانا ضروريا لعلوم الأوائل، أي الفلسفة والمنطق ضمن منهجه التصنيفي، ونظرته هذه محمولة على مركب فكري مفلسف.[2] وقد أشار أبو محمد إلى تصنيف العلوم في رسالتين هامتين ضمن مجموعة رسائله, إضافة إلى حديثه عن العلوم وأصنافها, وأصناف التأليف أيضا في رسائله الأخرى.[3] حيث أقام تصنيفه على أساس قسمة ثنائية بيْن قسم نافع محمود يقبله العقل والشرع، وقسم ثان مذموم يرفضه العقل والشرع.

« فالعلوم تنقسم أقساما سبعة عند كل أمة، في كل زمان وفي كل مكان وهي:علم شريعة كل أمة...وعلم أخبارها وعلم لغتها, فالأمم تتمايز في هذه العلوم الثلاثة, والعلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها وهي: علم النجوم وعلم العدد، والطب...وعلم الفلسفة، ومعرفة إلهية... وقد بيّنا أن كل شريعة سوى الإسلام فباطل فالواجب الاقتصار على شريعة الحق...»[4]

ثم راح يعرض لأقسام شريعة الإسلام على أنها أربعة: القرآن والحديث والفقه والكلام, مضيفا لهذه العلوم الأربعة مجموعة من العلوم الأخرى وهي:النحو واللغة والأخبار, والنسب والنجوم والعدد والمنطق والطب, والشعر والبلاغة وعلم العبارة– أي تعبير الرؤيا.[5] « فهذه الأفانين هي التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه, إسم العلم والعلوم، وعند التحقيق وصحة النظر، فكل ما عُلم فهو عِلم،

---

[1]- " فهو يرسم منهجا في التعليم ويخضع كل العلوم لمقاييس تربوية." إحسان عباس من مقدمته لـ" رسائل ابن حزم" (331/1).

[2]- إحسان عباس من مقدمته " لرسائل ابن حزم" (4/26-27).

[3]- وهما رسالة "التوقيف لمراتب العلوم" و"التقريب لحد المنطق" ورسالة:"التلخيص" ضمن:"رسائل ابن حزم" (ج.3و4).

[4]- ابن حزم: "رسالة مراتب العلوم" ضمن "الرسائل" (78/4).

[5]- نفسه.(78/4-79-80-81) و(348/4) .

فيدخل في ذلك علم التجارة والخياطة والحياكة، وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر وغرسها، والبناء وغير ذلك...»[1] وهذه العلوم المذكورة غير منفصلة، وإنما هي في نظره متكاملة.« والعلوم التي ذكرنا يتعلق بعضها ببعض ولا يستغني منها علم عن غيره...»[2] وتركيزه دائما على الشريعة وضرورة العمل للخلاص في الآخرة، والنجاة والفوز بالجنة.« الغرض منها التوصل إلى الخلاص في المعاد فقط... ونحن نوصي طالب العلم... أن لا يطلب بعلمه عرض الدنيا فيبذل الأفضل بالأدنى وأن يستعمل تقوى الله... فهو زين العالم... والمطلوب بتعلم العلوم إنما هو تعلم علم ما أراد الله تعالى منا...»[3] ولا سبيل إذن إلى أن تختلف الفلسفة والشريعة، بل إنه يصرح فعلا باتفاقهما, وبكون الفلسفة ذاتها تؤكد الحاجة الماسة إلى الشريعة[4].

ومن هنا نرى كيف يترابط النسق الظاهري عند ابن حزم, بتبنيه المنهج القائم على الربط بين النقل والعقل أو بين النص والمنطق، وعلى الاعتقاد بأن النص أو الدين حقيقة، والمنطق والفلسفة برهان على تلك الحقيقة. فلا سبيل إذن إلى أن يختلفا، ولا مندوحة من أن يتكاملا ويتفقا.[5] وأما العلوم المذمومة غير النافعة لديه فتشمل أربعة علوم هي: السحر والكيمياء والموسيقى والكواكب أو النجوم. «فمن ذلك علم السحر وعلم الطلسمات... وعلم الموسيقى... فاعلموا أسعدكم الله بتوفيقه أن من رأيتموه يدعي علم الموسيقى واللحون وعلم الطلسمات فإنه ممخرق كذاب مشعوذ وقّاح، وكذلك من وجدتموه يتعاطى علم الكيمياء...»[6]

والملاحظ على هذا التصنيف أن صاحبه يهدف من ورائه إلى إقامة تكامل بين هذه العلوم والمعارف. ذلك أن فيها علوم الأوائل القديمة، إضافة إلى علوم عربية وأخرى دينية إسلامية، وفيها أيضا أشكال أخرى كالطب والعدد والهندسة وغيرها.وهذا يعني الاحترام الفكري المتبادل والمتكامل بينها من جهة، والتميز بالصبغة الواقعية الجلية من هذا التصنيف من جهة أخرى، حيث أدرجت هذه العلوم

---

[1])- نفسه.(81/4) .
[2]) نفسه .(81/4).
[3])-نفسه. (81/4-82).
[4])-ينظر: "الفصل" (98/1) و"الرسائل" (131/3).
[5])- ينظر: "الرسائل" (95/4-102) (131/3) .
[6])- ابن حزم:"رسالة التوقيف" ضمن "الرسائل" (61/4-62) ويشاطره ابن خلدون الرأي بقوله:"جعلت الشريعة السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيه من الخطر، وخصته بالحظر والتحريم..." "المقدمة" (ص.473).

مع بعضها، وجمعت أشكالًا وصنوفا شتى من العلوم النقلية والعقلية[1] التي كان يحفل بها الواقع الثقافي والعلمي آنذاك في البيئة الإسلامية الأندلسية؛ بل إن واقعية ابن حزم تبرز من خلال ترتيبه لهذه العلوم, بحسب حاجة المسلم إليها وكيفية بنائه تربويا وثقافيا، بما يتناسب مع ما رسمته العقيدة الإسلامية، كما هي في تصور أبي محمد، وكما يظهر في الهيكل التصنيفي العام للعلوم عنده؛ أي أنه وضَعه على وعي منه، وبما هو مهم من العلوم في خدمة العقيدة. وهذه الصبغة التأصيلية نجدها واضحة سواء في حديثه عن التاريخ أو الفلسفة والمنطق، أو عن سائر العلوم ولنأخذ مثلا عن الرياضيات، حيث نجده يقول:« والمطلوب بتعلم العلوم إنما هو تعلم علم ما أراد الله تعالى منا... وما به يكون المخلص ... وهو المعرفة بالشريعة... فلا سبيل إلى صحة المعرفة واستحقاق حقيقتها إلا بمعرفة أحكام الله عز وجل ... ولابد أن يعرف من الحساب ما يعرف به القبلة والزوال إلى أوقات الصلوات... وقسمة المواريث والغنائم، فإن تحقيق ذلك فرض لابد منه...»[2]

فكل العلوم موضوعة لخدمة الشريعة الاسلامية، وتتعلق بالعمل للآخرة لا غير، أي أن تعلمها يكون للعمل بها وتطبيقها عمليا في حياة المسلم لينال ثوابا من عند الله، باعتبارها عبادة مشروعة، أما تعلمها وتعليمها لأغراض دنيوية بحتة، فهو نصب وتعب بلا قائدة، وهو ما لا يستحبه ولا يرضاه أبو محمد.«... وجملة الأمر أنه لولا طلب النجاة في الآخرة لما كان لطلب شيء من العلوم معنى، لأنه تعب، وقاطع عن لذات الدنيا... فالعلوم كلها متعلق بعضها ببعض... ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة فقط وهو علم الشريعة...»[3]

مكانة التاريخ بين العلوم :

ولقناعة ابن حزم بأهمية التاريخ وحبّه الشديد له, وولعه بالكتابة فيه، دفعه للعناية به.[4] ولذا فليس من قبيل الصدفة أن يعدّ ابن حزم مؤرّخا ممتازا, فقد اجتمعت له من الصفات الذاتية والموضوعية, ما أهّله ليكون رائدا من روّاد التاريخ

---

1)- سالم يفوت، **مقال**:" تصنيف العلوم عند ابن حزم " مجلة "دراسات عربية" لبنانية، العدد:(5) ،السنة: (19) مارس:1983م،(ص.82).

2)- ابن حزم: "الرسائل" (82/4) .

3)- نفسه.(89/4-90) ورسالة "التلخيص" (162/3-164) ورسالة "التوقيف" (139/3-140) ورسالة "التقريب" (345/4).

4)- "رسالة مراتب العلوم" وهي ضمن:"الرسائل" لابن حزم (72/4-73).

الإسلامي. وحيث أنّ التاريخ أو- علم الأخبار-[1] يُعتبر من أجلِّ وأكمل العلوم عنده, فإنّه قسّمه إلى أصناف خمسة:« علم الأخبار ينقسم على مراتب: إما على الممالك أو على السنين, وإما على البلاد, وإما على الطبقات, وإما منثوراً؛ وأصحُّ التواريخ عندنا تاريخ الأمة الإسلامية...»[2] وهذه التقسيمات الفرعية قلما نجدعا عند مصنفي العلوم، كما أنه عدَّ علم النسب جزءاً غير مجزءٍ من علم الخبر.[3]

ولا غرو في أن يحظى علم التاريخ عند ابن حزم بمكانة مرموقة في تصنيف العلوم؛ إذ أنه يأتي في المرتبة الثانية في الترتيب، حيث وضعه بعد الشريعة وقبل علم اللغة، وهذا إنما يعبر عن خلفيته الدينية وثقافته الإسلامية. « فالعلوم تنقسم أقساما سبعة عند كل أمة، في كل زمان وفي كل مكان وهي: علم شريعة كل أمة... وعلم أخبارها وعلم لغتها, فالأمم تتمايز في هذه العلوم الثلاثة...»[4]

وحيث أنّ التاريخ الذي يسميه ابن حزم بـــ"علم الأخبار"[5] يُعتبر من أجلِّ وأكمل العلوم عنده, فقد قسّمه إلى أصناف خمسة:« علم الأخبار ينقسم على مراتب: إما على الممالك أو على السنين, وإما على البلاد وإما على الطبقات, وإما منثوراً؛ وأصحُّ التواريخ عندنا: تاريخ الأمة الإسلامية.»[6] مما يعنى إحساسه بظاهرة تزييف التاريخ، ولذلك وجب التصدي لتحرير الكتابة التاريخية مـــن الأهـــواء والمغالط من ناحية، وبيان الحق والوقوف على العبرة والموعظة مـــن ناحية أخرى. " فالتاريخ يفيد في الإطلاع على فناء الممالك وخراب البلدان المعمورة... وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس، واستكثروا من الأموال... ومعرفة اختلاف أديانهم ومذاهبهم... والإطلاع على آثار المفسدين في الأرض وسوء الآثار عنهم."[7] وبخاصة أن القرآن الكريم حث على تتبع سير الماضين، وأخذ العبرة من حوادث الأمم والأقوام الغابرة، وتمثُّل قصصهم وعواقب أعمالهم، لأن سنن الله التاريخية الاجتماعية لا تتغير.

---

1)- "الرسائل" لابن حزم (78/4).
2)- نفسه.(79/4).
3)- نفسه(80/4).
4)- ابن حزم: "رسالة مراتب العلوم" ضمن "الرسائل" (78/4).
5)- ابن حزم: "الرسائل" (78/4).
6)- نفسه.(79/4).
7) - "رسالة مراتب العلوم" وهي ضمن:"الرسائل" لابن حزم (72/4-80).

ويمكننا أن نفهم من هذا النص الدقيق المختصر، اتساع موضوع علم التاريخ، وما يحويه من جوانب سياسية وحضارية. ولأجْل ذلك ألّف:"جمهرة أنساب العرب". ومن هنا فإن نزعته التاريخية تتجلى من خلال التراث التاريخي الذي تركه.« ونحن نستطيع أن نعتبر مصنَّفه الجامع:"الفَصْلُ في الملل والأهواء والنحل" تاريخا مقارنا للأديان والمذاهب الدينية... ولم تخلُ معظم رسائله ومؤلفاته من الإشارات التاريخية ذات المغزى, خاصة: "طوق الحمامة" التي يشير في مواطن عديدة منها إلى حوادث تاريخية عاصرها, كما تحوي كتبه الأخرى مجموعة من النوادر والنظائر التاريخية المدهشة, التي يقتضي اقتناصها وتنسيقها مقدرة فائقة ومعرفة شاملة بمختلف التواريخ.»[1] وأما المادة التاريخية فهي موجودة في مؤلفاته ورسائله, ومنها: "نقْط العروس" و"في أمهات الخلفاء" و"في جمل فتوح الإسلام" و"في أسماء الخلفاء" و"في فضل الأندلس" و"طوق الحمامة" و"جوامع السيرة".« فقد أرّخ في مصنّفه الضخم:"الفصْل" تأْريخا لاهوتيا مقارنا للأديان, مع إشارات تاريخية لمذاهب النصارى واليهود وغيرهم... كما أن له كتبا أخرى في تاريخ الأنساب والتاريخ السياسي.»[2] وبالتالي لا نعجب أن يصنف أبو محمد التاريخ في المكانة السامقة بين العلوم، فهو ذاته مؤرخ عانى من تزييف ومغالطات المؤرخين.« ولم تكن صفة المؤرخ لدى أبي محمد – ابن حزم– صفة عارضة إجتمعت إلى جانب صفاته الأساسية الأخرى, وهي أنه فيلسوف من أعظم فلاسفة الشرق والغرب, ولكننا نستطيع القول بأن صفة المؤرخ هي أيضا من صفات ابن حزم الأساسية... ويمكن أن يُصنَّفَ بكتابه:"جمهرة أنساب العرب" وحده في عداد أكابر المؤرخين...»[3]

استنتاج :

ويستفاد مما سبق أن اهتمام ابن حزم بتصنيف العلوم، ومطالبته بضرورة التعلم لصلاح حال الإنسان في الدنيا والفوز في الآخرة، ورسمُه لصورة معبرة عن نظرة المفكر المسلم للعلم والمعرفة؛ ولذلك لا نستغرب سيطرة الروح الدينية على فكر ابن حزم، ومبلغ تمسكه بالشريعة، ووضعها كمعيار سامق وأساسي لتحديد قيمة أي

---

1)-:"مجلة العربي" مقال : لمحمد عنان (ص.81) مرجع سابق.

2)- "في فلسفة الحضارة" عفت الشرقاوي (ص.177).

3)- محمد عبد الله عنان:"مجلة العربي" **مقال**:"ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أرّخ لمجتمع الطوائف", العدد:68، يونيو1964م(ص.80).

علم، بمقدار ما يقدمه ذاك العلم من خدمة للشريعة الإسلامية، وبما يقرّب العبد من ربه، فيكون هو الأهم والأكمل والأفضل. وهذا أيضا ما نجده عند الغزالي، حيث قسم العلوم إلى أصول وفروع، وجعل أهمها الموصل إلى الله عز وجل.[1]

وعلى هذا « فإن العلم إذا لم يستعمله صاحبه فهو أسوأ حالًا من الجاهل وعلمه حجة زائدة عليه.» [2] وليس معنى هذا أن ابن حزم يرفض الإعتناء بالعلوم الدنيوية – أو غير الدينية –، بل إنه يحث على تعلمها.« واعلم أن نظرك في العلوم على نية إدراك الحقائق في إنكار الباطل ونصر الحق، وتعليمه للناس وهدي الجاهل... ونفعك الناس في أديانهم وأبدانهم، وتدبير أمورهم وإنفاذ أحكامهم وسياستهم... أفضل عند الله من كل نافلة تتقرب بها إلى الله عزوجل وأعظم أجرا... »[3]

وبهذا يتبين لنا أن تصنيف أبي محمد، تصنيف فلسفي قائم على تأصيل العقل الإسلامي، حتى في تقريره لمراحل التدريس العلمية, والحدُّ الذي ينبغي لطالب العلم أن يتقنه، لأن الإنسان لا يستطع الإحاطة بكل العلوم.[4] وهذا « المنهج الإسلامي الذي يضعه ابن حزم– عامدا فيما أظن– إزاء المنهج الأفلاطوني الذي تُطلب فيه العلوم بالتدرج, لبلوغ مرحلة الديالكتيك كما يعرف كل من له إلمام بمنهجه التعليمي بكتابه الجمهورية.»[5]

على أن أهمية ابن حزم لا تقف عند كونه مؤرخا, أو في ما قدّمه من مصنفات تاريخية تتسم بروح الدقة والنزاهة والأمانة؛ وإنما هي تمتد أيضا إلى ملاحظاته المنهجية في مضمار فلسفة التاريخ. ولهذا يعتبر أهمَّ من ظهرت لديه تفسيرات تاريخية واضحة في هذه الحقبة, وهو يذهب شأنه شأن سائر المؤرخين المسلمين المتقدمين إلى أن للتاريخ فائدة, أو غاية يمكن أن تستخلص جوانبها من وراء الدراسة المتأنيّة للأحداث والوقائع.[6]

---

1)- الغزالي:"إحياء علوم الدين" (1/12-16-17-60) و"ميزان العمل" (ص.62.

2)- ابن حزم: "الرسائل" (339/4) .

3)- ابن حزم:"رسالة التقريب لحد المنطق" ضمن" الرسائل" (345/4).

4)- ابن حزم: "رسالة مراتب العلوم" ضمن"الرسائل" (83/4).

5)- إحسان عباس من مقدمته "لرسائل ابن حزم" (24/4).

6)- عبد الحليم عويس:"تفسير التاريخ علم إسلامي"(ص.108) وزكريا إبراهيم:"ابن حزم..."(ص.229)

مـــسرد المـــصادر والمـــراجع :

ابن حزم:

–"جمهرة أنساب العرب"تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة ط.1962م.

..:–"جوامع السيرة" تحقيق: إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، د.ت.ط.

...–"الرسائل" تحقيق:إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت (ط.2, 1987م).

.....:–"الفَصْلُ في الملل والأهواء والنحل"تحقيق: يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي, بيروت, ط.2002م

.....:–"نقط العروس في تواريخ الخلفاء" تحقيق: شوقي ضيف، نشر جامعة الملك فؤاد الأول، القاهرة ط.1951م.

.....:– "التوقيف لمراتب العلوم" تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت (ط.2, 1987م).

.....:"التقريب لحد المنطق والمدخل إليه" تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت (ط.2, 1987م).

.....: –"التلخيص لوجوه التخليص" تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت (ط.2, 1987م).

– حامد طاهر:"منهج البحث بين التنظير والتطبيق" دار نهضة مصر, القاهرة, ط2007م

–ابن خلدون:–"المقدّمة" تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار الفكر، بيروت، ط.1401هـ

– عويس، عبد الحليم:–"ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" الزهراء للإعلام، القاهرة ط.1988م

– عنان، محمد عبد الله، **مقال:**"ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أرّخ لمجتمع الطوائف " بمجلة:"العربي" الكويتية, العدد:68، يونيو1964م .

– يفوت، سالم **مقال:**" تصنيف العلوم عند ابن حزم " مجلة "دراسات عربية" لبنانية، العدد:(5) ،السنة: (19) مارس:1983م

محمد فؤاد باشا: "ابستمولوجيا العلم ومنهجيته في التراث الإسلامي" "بحث مقدم إلى ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي" جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، بتاريخ (9–12) سبتمبر.1989م .